التاريخ الإسلامي في العصر العباسي

الطالب ياسر محمد خضير

المشرف الدكتور محمد احمد الاذن

جامعة الجنان كلية الآداب والعلوم الانسانية

المقدمة

يمتد التاريخ الإسلامي على فترة زمنية طويلة تغطي معظم العصور الوسيطة على مساحة جغرافية واسعة تمتد من حدود الصين في آسيا إلى غرب آسيا وشمال أفريقيا وصولا إلى الأندلس ويمكن اعتبار التاريخ الإسلامي يمتد منذ بداية الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي في شبه الجزيرة العربية على النبي محمد بن عبد الله بمكة ثم تأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة مرورا بالدولة الأموية في دمشق التي امتدت من حدود الصين حتى جبال البرانس شمال الأندلس ثم الدولة العباسية بما تضمنته هذه الدول الإسلامية من إمارات وسلطنات ودول مثل السلاجقة والبويهيين وفي المغرب الأدارسة والمرابطون ثم الموحدون وفي بلاد الشام الحمدانيون والزنكيون وغيرهم أخيرا في مصر الفاطميون وفي الشام ومصر مثل – الأيوبيون والمماليك ثم سيطرة الدولة العثمانية التي تعد آخر الإمبراطوريات التي كانت تحكم باسم الإسلام على امتداد رقعة جغرافية واسعة، وكانت تلك الإمبراطوريات التي ذكرت قد حكمت رقع واسعة من البلاد غير العربية، فوصلوا إلى بلاد ما وراء النهر شرقا وفرنسا وإسبانيا غربا.

الدولة العباسية في الإسلام

اندلعت الثورة العباسية أول الأمر في خراسان بقيادة أبي مسلم الخراساني، وهو قائد أموي انقلب على حكم الأمويين، وبعد نصف قرن من الدعاية السرية، نودي بأبي العباس السفاح خليفة بعد وفاة أخيه إبراهيم بن محمد بن علي، وقد تعقب السفاح بقايا الأمويين في بلاد الشام وقتلهم واحدا بعد الآخر ولهذا لقب بالسفاح.

بعد نجاح ثورتهم، نقل العباسيون عاصمتهم من دمشق إلى بغداد، التي ازدهرت طيلة قرنين من الزمن، وأصبحت إحدى أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة للعلوم والفنون، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية.

يُعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لدولة العباسيين حيث قام بترسيخ أقدامها في العالم الإسلامي وأقام حضارة مزدهرة وسيطر بسرعة على معظم المناطق الإسلامية التي فتحها الأمويون ولكن فقدوا بعض المناطق منها الأندلس وبعض أجزاء من دول المغرب العربي أو غرب إفريقية منها موريتانيا، لكن عوضها العباسيون في عهد الخليفة هارون الرشيد بمناطق أخرى كما تُعتبر خلافة هارون الرشيد بداية عصر القوة في الدولة العباسية (العصر الذهبي)، ويشمل ذلك العصر خلافة ابنه المأمون، ثم المعتصم بن الرشيد ، فالواثق بن المعتصم؛ حيث تميز هذا العهد بقوة السلطة المركزية، وبالتنظيمات الإدارية، والإصلاحات. في عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، وتطورت العلوم خصوصا الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية. اعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانا خاصا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن و بانتهاء العصر الذهبي يبدأ العصر العباسي الثاني، وتبدأ الدولة العباسية في الانهيار، بعد ١٠٠ سنة تقريباً من تأسيسها فقدت الدولة العباسية كل ما ملكته من المناطق ما عدا العراق بعد تمرد الولاة ومن أولهم أحمد بن طولون الذي استقل بمصر والشام والحجاز وتهامة وأسس الدولة الطولونية وعاصره أن الترك والفرس قد سيطروا على الجيوش العباسية بعد أن فضلهم العباسيون على العرب فضاعت هيبة الخلافة واستقلت دول كثيرة عن الخلافة العباسية منها دولة السلاجقة والدولة الفاطمية والدولة البويهية والدولة الخوارزمية وغيرها من الدول.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة ١٢٥٨م عندما أقدم هولاكو خان التتري على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه. انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد وحرق مكتبتها، حيث قامت الخلافة مجددا تحت زعامة المماليك في سنة ١٢٦١م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مجرد رمز لوحدة الدولة الإسلامية دينيا، في حين أن سلاطين المماليك المصريين كانوا هم الحكام الفعليون للدولة. استمرت الخلافة العباسية قائمة حتى سنة ١٥١٧م عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها كما أن لم تستمر حركة الفتوحات في عهد العباسيين بالقدر الذي كانت عليه في السابق، إلا أن عصر القوة العباسي شهد نهضة علمية بالغة القوة والتنوع في شتى المجالات، شهد هذا العصر ظهور علوم نقلية كثيرة مثل: علم التفسير وعلم القراءات وعلم الحديث والفقه، وعلم الكلام والنحو واللغة، والبيان، والأدب. وزاد الاهتمام بالعلوم العقلية مثل الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والكيمياء، والتاريخ والجغرافيا. وقد ازدهرت هذه العلوم جميعها.

انتشر كذلك فن الروايات والقصص ذات العبر ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع والذي مرر من خلاله نقدا لاذعا لولاة الأمر على ألسنة حوار جرى في مملكة الحيوان.

ومن أبرز المنجزات العلمية في العصر العباسي، رسم أول خارطة للعالم بأسره على يد الإدريسي ومن العلماء العباسيين البارزين أيضًا، ابن الهيثم المولود عام ٩٦٥ والذي ألف مائتي كتاب في شتى العلوم ولعلّ كتبه حول الأشعة وانكسارها وانعكاسها أبرز ميادين كتابته، وقد حاز مؤلفه «المناظر» الذي درس به الأشعة شهرة عالمية.

كما شهد هذا العصر ظهور المدارس الفقهية لأبي حنيفة ومالك ابن أنس والشافعي وأحمد ابن حنبل.

خصائص الحضارة الإسلامية العهد العباسي اعتمدت الدولة العباسية كما أسلفنا على شعوب البلاد المفتوحة. وكانت هذه الشعوب عريقة في حضارتها، فهناك الحضارة الساسانية التي سادت العراق وفارس، وكانت تحتفظ بتراث آسيوي خاص ساهمت في تكوينه الحضارتان الصينية والهندية بنصيب وافر وهناك الحضارة البيزنطية التي سادت في الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط، وهي حضارة ذات أصول يونانية شرقية، لأن البيزنطيين والرومان من قبلهم كانوا تلاميذ لليونان، وكانت الإسكندرية وحران والرها ونصيبين وإنطاكية من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية.

فالعرب، رغم تراثهم العريق القديم الذي تمثل في حضارات معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن وحضارة الحجاز التي اشتهرت بنشاطها التجاري والديني، إلا أنهم وجدوا في البلاد التي فتحوها حضارات متطورة راقية لها إدارات حكومية منظمة ونظم اقتصادية متفوقة في الزراعة وأعمال الري والصناعة، وفي ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء، فاغترفوا منها بما يتفق مع تقاليدهم وعقيدتهم.

وهكذا نرى أن الدولة العباسية باعتمادها على هذه الشعوب، عملت على مزجها وصهرها في البوتقة الإسلامية. وهذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية العجيبة التي امتدت من قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري. فإن كان للدولة العربية الإسلامية في صدر الإسلام فضل الفتوح والانتشار والاتصال بالحضارات القديمة مما أدى إلى ظهور المنابت الأولى للحضارة الإسلامية في أواخر عهدها، فإن للدولة العباسية فضل رعاية هذه المنابت الحضارية والعمل على تنميتها وازدهارها فالمسلمون نقلوا وترجموا وعربوا هذا التراث القديم إلى لغتهم العربية، حتى إذا ما استوعبوا ما نقلوه أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون، حتى قدموا للعالم ما عرف بالحضارة العربية الإسلامية، وهي الحضارة التي توفرت لها تلك المزايا الثلاث التي لا تتوفر إلا في الحضارات الكبرى وهي: الامتياز، والأصالة، والإسهام في تطور البشرية.

لهذا أجمع العلماء على أن الحضارة الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية، كما أنها من أطول الحضارات العالمية عمراً، وأعظمها أثراً في الحضارة العالمية.

وتبدأ هذه النهضة الحضارية في العراق بعد أن أسس الخليفة العباسي "أبو جعفر المنصور " مدينة بغداد (وجعلها عاصمة لدولته، ومقراً للخلافة العباسية صاحبة السلطان الشرعي على جميع الأقطار الإسلامية فهي لم تكن مثل الفسطاط أو دمشق أو قرطبة، عاصمة قطر بعينه، بل كانت عاصمة العالم الإسلامي كله. ولهذا صارت مدينة دولية واكتسبت صفة عالمية، وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس والملل والنحل، إسلامية وغير إسلامية، فهناك الفرس والهنود والسريان والروم والصينيون وغيرهم. وكل هذه العناصر لم تسكن بغداد بأشخاصها فقط، بل بثقافاتها وتجارتها وعلمها وفنها، فعربت ألفاظ يونانية وفارسية وهندية كثيرة. وترجمت عن اليونانية حكم" سقراط وأفلاطون وأرسطو، وظهرت كتب الأدب العربي مثل عيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ وفي خلافة أبي جعفر المنصور ترجمت بعض أعمال العالم السكندري القديم بطليموس القلوذي ، ومن أهمها كتابه المعروف باسم "المجسطي ". واسم هذا الكتاب في اليونانية " (" أي الكتاب الأعظم في الحساب. ويبدو أن المسلمين حولوا لفظ في مجال إلى" مجسطي ".

والكتاب عبارة عن دائرة معارف في علم الفلك والرياضيات. وقد أفاد منه علماء المسلمين وصححوا بعض معلوماته وأضافوا إليه. وعن الهندية، ترجمت أعمال كثيرة مثل الكتاب الهندي المشهور في علم الفلك والرياضيات، "براهمسبهطدهانت " وتختصر بسد هانتا أي " المعرفة والعلم والمذهب .". وقد ظهرت الترجمة العربية في عهد أبي جعفر المنصور بعنوان "السند هند" وهو تحريف للعنوان الأصلي..

وفي خلافة هارون الرشيد أسس في بغداد في بيت الحكمة" لأعمال النقل والترجمة، الذي ازدهر في عهد ولده عبد الله المأمون (١٩٨ هـ/٨١٣ م- ٢١٨ هـ / ٨٣٣م)، فترجمت فيه أمهات الكتب اليونانية القديمة، وأقيمت فيه المراصد ورسمت فيه الرسوم الخرائط الجغرافية على أحدث ما توصل إليه العلم في الأرصاد وأعمال المساحة. كما تخرج منه مشاهير العلماء أمثال " محمد بن موسى

الخوارزمي (ت ٢٣٢ هـ ٨٤٦م) " الذي عهد إليه المأمون بوضع كتاب في علم الجبر، فوضع كتابه " المختصر في حساب الجبر والمقابلة"، وهذا الكتاب هو الذي أدى إلى وضع لفظ الجبر وإعطائه مدلوله الحالي. قال ابن خلدون: "علم الجبر والمقابلة (أي المعادلة من فروع علوم العدد، وهو صناعة يستخرج بها العدد المجهول من العدد المعلوم إذا كان بينهما صلة تقتضى ذلك فيقابل بعضها بعضاً، ويجبر ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً. فالجبر إذن، علم عربي سماه العرب بلفظ من لغتهم، والخوارزمي هو الذي خلع عليه هذا الاسم الذي انتقل إلى اللغات الأوروبية بلفظه العربي ولقد ترجم كتاب الخوارزمي إلى اللغة اللاتينية في سنة ١١٣٥ م بواسطة مستعرب إنجليزي اسمه " رو برت أوف تشستر " " درس وعاش في أسبانيا حيث كان أسقف بامبلونه ومن هناك انتقلت ترجمته إلى أوروبا حيث ظلت تدرس في جامعاتها حتى القرن السادس عشر الميلادي. كما انتقلت الأرقام العربية إلى أوروبا عن طريق مؤلفات "الخوارزمي ". ومن الملاحظ أن اسم "الخوارزمي " استعمل في اللغة اللاتينية على شكل الجور" تمي " ثم حور في قالب "الجورزمو " "للدلالة على نظام الأعداد وعلم الحساب والجبر وطريقة حل المسائل الحسابية .

هذا، وتظهر عبقرية "الخوارزمي " في " الزيج " أو الجدول الفلكي الذي صنعه وأطلق عليه اسم "السند هند الصغير ،، وقد جامع فيه بين مذهب الهند، ومذهب الفرس ومذهب بطليموس اليونان)، فاستحسن أهل زمانه ذلك وانتفعوا به مدة طويلة فذاعت شهرته وصار لهذا الزيج أثر كبير في الشرق والغرب.

وللخوارزمي مأثرة أخرى، وهي أنه رسم للمأمون خريطة كبيرة للعالم المعمور على أيامه، كما وضع كتاباً جغرافياً بعنوان "صورة" الأرض " اعتمد فيه على كتاب المجسطي لبطليموس مع إضافات و شروح وتعليقات وقد نشر هذا الكتاب وترجم إلى الألمانية سنة ١٩٢٦ وفي مجال الطب والعناية بالمرضى أنشأ العباسيون عدداً كبيراً من البيمارستانات (المستشفيات)، ومخازن الأدوية، واستأثرت العاصمة بغداد بالعديد منها ، فنسمع عن البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في الجانب الغربي من بغداد على يد الطبيب "جبرائيل بن بختيشوع " ، والبيمارستان الصاعدي أيام المعتضد في الجانب الشرقي من بغداد والبيمارستان المقتدري الذي بناه المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ٩١٨م وبيمارستان السيدة الذي أنشأته أمه في الأعظمية، وبيمارستان ابن الفرات الذي أنشأه وزيره أبو الحسن علي بن الفرات، والبيمارستان العضدي... الخ. وكانت هذه محاولة لإيجاد أماكن تعالج فيها المرضى ويخضعون للملاحظة والتسجيل وهي أساس المستشفيات الحديثة.

وقد توصل الأطباء المسلمون إلى أراء جديدة في الطب تخالف أراء القدماء في معالجة كثير من الأمراض، واستخدموا في مستشفياتهم الكاويات في الجراحة ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف أو معالجة الحميات، وعالجوا الأورام الأنفية وخياطة الجروح، وقطع اللوزتين، وشق أوراق الحلق، وقطع الأثداء السرطانية، وإخراج الحصاة من المثانة، وجراحة الفتق وجراحة العيون، وإخراج

هذا، وتظهر عبقرية "الخوارزمي " في " الزيج " أو الجدول الفلكي الذي صنعه وأطلق عليه اسم "السند هند الصغير ،، وقد جامع فيه بين مذهب الهند، ومذهب الفرس ومذهب بطليموس اليونان)، فاستحسن أهل زمانه ذلك وانتفعوا به مدة طويلة فذاعت شهرته وصار لهذا الزيج أثر كبير في الشرق والغرب.

وللخوارزمي مأثرة أخرى، وهي أنه رسم للمأمون خريطة كبيرة للعالم المعمور على أيامه، كما وضع كتاباً جغرافياً بعنوان "صورة" الأرض " اعتمد فيه على كتاب المجسطي لبطليموس مع إضافات و شروح وتعليقات وقد نشر هذا الكتاب وترجم إلى الألمانية سنة ١٩٢٦ وفي مجال الطب والعناية بالمرضى أنشأ العباسيون عدداً كبيراً من البيمارستانات (المستشفيات)، ومخازن الأدوية، واستأثرت العاصمة بغداد بالعديد منها ، فنسمع عن البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في الجانب الغربي من بغداد على يد الطبيب "جبرائيل بن بختيشوع " ، والبيمارستان الصاعدي أيام المعتضد في الجانب الشرقي من بغداد والبيمارستان المقتدري الذي بناه المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ٩١٨م وبيمارستان السيدة الذي أنشأته أمه في الأعظمية، وبيمارستان ابن الفرات الذي أنشأه وزيره أبو الحسن علي بن الفرات، والبيمارستان العضدي... الخ. وكانت هذه محاولة لإيجاد أماكن تعالج فيها المرضى ويخضعون للملاحظة والتسجيل وهي أساس المستشفيات الحديثة.

وقد توصل الأطباء المسلمون إلى أراء جديدة في الطب تخالف أراء القدماء في معالجة كثير من الأمراض، واستخدموا في مستشفياتهم الكاويات في الجراحة ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف أو معالجة الحميات، وعالجوا الأورام الأنفية وخياطة الجروح، وقطع اللوزتين، وشق أوراق الحلق، وقطع الأثداء السرطانية، وإخراج الحصاة من المثانة، وجراحة الفتق وجراحة العيون، وإخراج

والرازي وعمر الخيام وابن النفيس وعبد اللطيف البغدادي وابن رشد وابن الطفيل والسمعاني وغيرهم.

لقد عرض هؤلاء العلماء لكبريات المشكلات المنطقية فعالجوها بأصالة المنهج في الملاحظة والتشخيص والكشف عن الأسباب والعلامات، فإن الشيء لا يعلم العلم اليقين إلا من جهة أسباب، ولذلك كان علم الأسباب واجباً، لم يقع العلماء المسلمون فريسة التفريق بين الإلهام الإلهي والنظر الاستنباطي، وإنما جعلوهما يلتقيان على نحو من التكامل، فغاية العلوم الفقهية، تعليم الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورسم نهج الحياة، وغرض العلوم الطبيعية، الوقوف على الحقيقة والتوجه إلى الخير والتحويل عن الشر، فالدرس والتفحص مقرون بالقياس واستخراج الحكمة هي السبل الصحيحة للوصول إلى الحقيقة العلمية، قال الله تعالى: " أو لم ينظروا في ملكوت السموت والأرض وما خلق الله من شيء " سورة ا لأعراف آية (١٨٥)، وقال تعالى: " فاعتبروا يأولى الأبصر"، الحشر – أية (٢) .. فكانت محصلة كل ذلك دراسة العلوم الدنيوية دون أن تؤثر على العقيدة الإسلامية إذ عملوا على سد الثغرات التي يمكن أن تؤثر على علمهم وذلك بالبحث والدرس. وهذا ما جعلهم يربطون بين ما تلقوه من تعاليم القرآن وتصوراتهم وآرائهم الفلسفية والعلمية بتوازن تام ونسق منهجي باهر، إن أعظم نشاط فكري قام به العلماء المسلمون، يبدو جليا في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، لقد كانت الشمولية المدعمة بالبحث والتفحص أهم ظاهرة تميز بها العلماء المسلمون، حيث أن العالم هو العالم الشامل ولا خطر على العلم من الدين ولا خوف من تأثير العلوم الدنيوية على تعاليم الدين فجاءت مصنفاتهم وثيقة العرى بالشريعة موصولة بالعلوم الفقهية. وإلى جانب هذا الازدهار العلمي التجريبي والعقلاني، اشتهرت بغداد أيضاً بالعلوم النقلية أو الشرعية التي تتصل بالقرآن الكريم والسنة النبوية مثل التفسير. والقراءات والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا... الخ. وقد حرص خلفاء بني العباس منذ بداية دولتهم على الاهتمام بهذه العلوم الإسلامية وتشجيع العلماء المشتغلين بها ولا سيما علماء أهل الحجاز الذين كانوا على دراية واختصاص بعلوم القرآن والحديث والسنة. ومثال ذلك الخليفة "أبو جعفر المنصور"

الذي حض علماء أهل المدينة على القدوم إلى بغداد ويسر لهدم مكانة مرموقة. وتابعه في هذا الاهتمام ابنه "المهدي " الذي أكرم وفادة القادمين من أهل المدينة وقربهم إليه وأجزل لهم العطاء وأطلق عليهم اسم الأنصار ، وصارت لهم في بغداد قطيعة وقنطرة ومسجد ومقابر خاصة بهم، كما كان لهم نقيب خاص لهذا كان من أوائل قضاة بغداد عدد من أهل الحجاز مثل "يحيى بن سعيد الأنصاري "، و، " سعيد بن عبدا لرحمن الجمحي هذا إلى جانب المحدث، "والإخباري المعروف "محمد بن إسحاق بن يسار (ت ١٠٢ هـ " الذي رحب المنصور بمقدمه. ويقال أنه لما دخل على الخليفة المنصور وكان بين يديه ابنه المهدي، قال له المنصور : "أتعرف من هذا يا ابن إسحاق؟ "، فقال نعم، هذا ابن أمير المؤمنين. قال " اذهب وصنف " كتاباً منذ خلق الله تعالى أدم عليه السلام إلى يومك هذا".. فصنف ابن إسحاق كتابه "المغازي والسير وأخبار المبتدأ .. على أن هذا الكتاب للأسف لم يصل إلينا إلا في رواية مختصرة له كتبها "عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ) " وتعرف باسم سيرة رسول الله وتعرف عموما بسيرة ابن هشام. غير أنه يلاحظ من الحوار الذي دار بين المنصور وابن إسحاق " أن الكتاب الذي طلبه المنصور لا يقتصر على السيرة النبوية فقط، بل يشمل تاريخاً منذ خلق الله آدم إلى اليوم الذي يعيشه ابن إسحاق، أي أنه يجمع بين ماضي الأمة الإسلامية وحاضرها، وهذا يدل على أن كتاب المغازي لابن إسحاق كان أشمل وأوسع بكثير مما وصل إلينا عن طريق ابن هشام، وقد يؤيد ذلك أن ابن إسحاق كان موضع مديح العلماء الذين جاءوا بعده، إذ وصفوه بأنه لم ينزع في كتابه إلى تدوين تاريخ النبي فحسب، بل إلى تاريخ النبوة بذاتها. وقال فيه الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) "من أراد التبحر في المغازي، فهو عيال على ابن إسحاق . وعلى أية حال، فإن هذه النقلة التي أقدم عليها ابن إسحاق من رواية الحديث إلى الاشتغال برواية الأخبار، تعتبر بداية انفصال التاريخ عن الحديث، على اعتبار أن التاريخ كان نوعاً من أنواع الحديث.

وهكذا صار التاريخ علماً مستقلاً، وأخذ يتطور تدريجياً حتى أخذ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة، سياسية كانت أو علمية، بينما تضاءل مدلول لفظ إخباري حتى صار يطلق فقط على من يروي الحكايات والقصص.

ولقد كانت بغداد مركزا لتطور الدراسات التاريخية والحضارية على مستوى عالمي، فلم يعد إنتاجها في هذا الصدد قاصراً على العراق فحسب، بل شمل العالم الإسلامي والحياة الإسلامية ومثال ذلك تاريخ الرسل والأمم والملوك للطبري (ت ٣١٠هـ)، وكتابا مروج الذهب " "والتنبيه" والأشراف " للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، وكتب المسالك والممالك، وكتاب " الأغاني "لأبي الفرج الأصفهانيت ٣٥٥هـ) "، وقصص " ، ألف ليلة وليلة" ، كلها صور عامة للحياة الإسلامية بمختلف مظاهرها التاريخية والحضارية.

وما يقال عن التاريخ يقال أيضــاً عن علم الفقه الذي يقوم على البحث في الأحكام الشــرعية، ومعرفة حكم الدين في القضــايا التي تحدث للمسلمين سواء في قضايا دينهم (العبادات) أو في قضايا دنياهم (المعاملات). ومع قيام الدولة العباسية كان المسلمون قد بدأوا في تدوين فقههم واستنبطوا الأحكام والشرائع في القرون الأولى للهجرة، وهو ما لم يتفق لدولة من الدول السابقة، فالقانون الروماني مثلاً لم يستقر أمره إلا زمن الإمبراطور" "جستنيان " أي بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون.

وهكذا ظهرت المذاهب الفقهية في عصــر الدولة العباسـية، واحتلت بغداد مكان الصــدارة لهذه الدراسـات الفقهية، إذ ظهر فيها الإمام " أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـ) " في خلافة أبي جعفر المنصور، وكان مذهبه يعتمد على الرأي والقياس والاجتهاد، بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية في البيئة العراقية لكونها مجمعاً لمختلف الأجناس والملل والنحل مما أدى إلى ظهور قضــــايا ومشــــاكل جديدة لا تنطبق عليها نصــوص القرآن والســنة، وتحتاج إلى وضــعها محل الاجتهاد، والحكم فيها عن طريق الاســتنباط العقلي القائم على المنطق الدقيق وهو القياس أو الرأي. وقد عاصر الإمام أبو حنيفة كلاً من الأئمة مالك بن أنس في المدينة (ت ١٧٩ هــــ) "، و" الليث بن سعد في الفسطاط (ت ١٧٥هــــ ، وهم جميعاً من أهل الحديث، أي أنهم يتمسكون عند إصدار أحكامهم بنصوص القرآن والحديث، ولا يرضون عما استحدثه الأحناف من أقيسه ذات طابع فلسفي.

وفي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة ١٥٠ هـ)، ولد الإمام "محمد بن إدريس الشافعي " في غزة، وعاش في الحجاز حيث حفظ موطأ الإمام مالك بن أنس " بالمدينة المنورة وقرأه عليه وهو صبي في العاشرة من عمره، ثم رحل إلى العراق حيث تعلم في بغداد فقه أبي حنيفة" قبل رحيله واسـتقراره في مصــر. ومن ثم جاء مذهبه وسـطاً بين مذهب " أبي حنيفة" المتوسـع في الرأي، ومذهب "مالك بن أنس " المعتمد على الحديث. وتوفي "الشافعي " في الفسطاط سنة ٢٠٤ هـ) ومقامه معروف هناك، ومن أشهر مؤلفاته "كتاب الأم " في الفقه، و"رسالة في أصول الفقه "، تعتبر الأولى من نوعها، إذ وضع فيها لأول مرة قواعد الاستنباط في الأحكام الشرعية وهو ما يسمى بأصول الفقه.

وجاء بعده تلميذه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني "، الذي ولد وعاش ومات في بغداد (١٦٤ – ٢٤١ هـ وكان يرى أن يقوم الفقه على النص من الكتاب أو الحديث وأنكر على أستاذه " الشافعي " أخذه بالرأي واعتبر الحديث أفضل من الرأي، فعاد بذلك إلى رأي الإمام مالك. ومن أشهر كتبه "المسند" الذي يعتبر موسوعة لأحاديث الرسول (r) .

يسير وأخيراً يعتبر الشيعة الإمامة" ضرورية ومن أساس الدين، والإمام عندهم هو الذي بالأمة إلى الهدف الأعلى ويدفعها إلى السير في الطريق المستقيم، والفقه من اختصاص الإمام وحده فهو المجتهد المطلق، ومن كتبهم كتاب الكافي للكليبي ت ٣٢٨ هــ / ٩٣٩م والنهاية في الفقه لمحمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ وهكذا نرى أن بغداد عرفت من الفقهاء الذين أقاموا أو درسوا فيها، عدة اتجاهات فقهية، فهناك المتمســـك بالرأي، كأبي حنيفة ، وهناك المتمســـك بالنصــــوص "كابن حنبل "، وهناك من لاءم بينهما واتخذ مذهباً وســـطاً "كالشافعي. والواقع أن كل المذاهب الفقهية الإسلامية تتفق معاً في العمل بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنها تختلف في فهم واستنباط الأحكام الشرعية وتطبيقها.

أما دراسـات العلوم اللغوية والنحوية، فقد شـهدت العراق فيها ثورة واسـعة ضـخمة على أيدي علماء البصـرة والكوفة الذين حققوا إنجازات وابتكارات علمية في هذا المجال للحفاظ على كلام العرب وتقويم اللسـان العربي، بعد أن فشـا اللحن في كلام المسـلمين، نتيجة لاختلاطهم بالأعاجم في البلاد المفتوحة. لهذا قام هؤلاء العلماء بجمع وتدوين ألفاظ اللغة العربية وأشـعارها من منابعها الصـافية في نجد بقلب الجزيرة العربية. كذلك وضـعوا قواعد نحوية للغة العربية، وابتكروا النقط والشـكل على الحروف لمعرفة نطق الكلمات نطقاً سـليماً، ولا سـيما القرآن الكريم، حتى لا يتعرض للتحريف. هذا إلى جانب تصـنيف المعاجم اللغوية، ووضـع علم العروض لمعرفة أوزان الشـعر وأحكامه وبحوره. ومن أشــهر الرواد الذين حققوا هذه الابتكارات العلمية مع بداية العصــر العباســي العالم البصــري العربي، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هــ ا (٧٩م) "، وتلميذه وشيخ البصريين بعده العالم الفارسي "أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه (ت ١٧٧ هــ / ٧٩٣ م) ". ولم تلبث العاصـــمة بغداد أن شـــاركت في هذه النهضـــة العلمية، حيث انتقل إليها عدد من علماء الكوفة والبصـــرة أمثال " أبي حنيفة و المفضـل الضـبي " و"الكسائي "الفراء "، و"ابن السكيت "، بحيث صـارت بغداد مسرحاً لمناظرات علمية حامية الوطيس بين أشـهر علماء العصر.

أما الأدب، فقد تطور هو الآخر في العصــر العباســي تطوراً كبيراً، ونهج الشـعراء فيه مناهج جديدة في المعاني والموضـوعات والأسـاليب والأخيلة، وغير ذلك من فنون الشعر المختلفة التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف ولا سيما في رصافة بغداد أو

بغداد الشرقية. ومن أشهر هؤلاء الشعراء،، أبو نواس " الذي ذاعت قصائده في الخمر والغزل والصيد.. الخ، و" أبو تمام الطائي المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، وتلميذه أبو عبادة البحتري " صاحب

المدائح الخالدة، و"ابن الرومي " المعروف بطول نفسه وغزارة شعره، و" أبو العتاهية" الذي اشتهر بالحكمة والغزل الرقيق، والمتنبي، الذي اشتهر بالفخر، وأبو العلاء المعري شاعر الحكمة، وغيرهم كثيرون. ويكفي أن نشير إلى ما قاله الخليفة الشاعر "عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـــ) " في كتابه "طبقات الشعراء" من أن عدد شعراء الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث الهجري فقط بلغ أكثر من مئة وثلاثين شاعراً. هذا إلى جانب الشاعرات والأديبات من النساء اللائي لعبن دوراً هاماً في الحياة الأدبية وفي الأحداث المهمة في المجتمع الإسلامي مثل "رابعة بنت إسماعيل "العدوية التي سلكت طريق الزهد والتصوف والأميرة، علية بنت المهدي " التي وصفها "الحصري " بأنها تعدل الكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل وحسن المقال، ولها شعر رائق وغناء رائع .". ومثل الأميرة "العباسة بنت المهدي " التي لعب الخيال دوراً كبيراً في القصص التي أحاطت بها، إذ تروى لها أشعار تدل على ذكاء وحسن تأت للموضوع الذي تقصد إليه. ومثل "عابدة الجهنية" التي قال "السيوطي " عنها أنها "أديبة شاعرة فصيحة فاضلة كاتبة".

هذا، ويروي "ابن الفوطي " أن الخليفة العباسي "الناصر لدين الله (ت ٦٢٢ هـــ) كانت لديه جارية تركية تسمى "شجرة الدر"، مقربة إليه، وكانت تكتب خطاً جيداً، وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره، ويملي عليها الأجوبة. وتوفيت سنة ٦٣٤ هـــ ١٢٣٦م ودفنت في تربة الخلاطية ببغداد.

ومن الطريف أن هذه الأديبة العراقية شجرة الدر ، عاصرت ملكتين مسلمتين في العالم الإسلامي أولاهما الملكة رضية الدين " سلطانة دلهي بالهند الإسلامية وهي تعتبر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة إسلامية (٦٣٤-٦٣٨ هـــ -١٢٣٦ - ١٢٤٠م) . والملكة الثانية هي سميتها في الإسم، سلطانة مصر المعروفة "شجرة الدر " ، صاحبة الفضل الأول في إخفاق الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٧ هـــ (١٢٤٩ م). وإذا انتقلنا إلى عالم الفنون والعمارة، نجد أن العباسيين لم يكونوا أقل اهتماما من الأمويين في مجال التشييد والتعمير، ففي العمارة بنى أبو جعفر المنصور" على نهر دجلة عاصمته بغداد ١٤٥ ١٤٩ هـ على شكل دائري، وهو اتجاه جديد في بناء المدن الإسلامية، لأن معظم المدن الإسلامية، كانت إما مستطيلة كالفسطاط، أو مربعة كالقاهرة، أو بيضاوية كصنعاء. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها، ولعل الخليفة "المنصور" تأثر بهندسة بعض العواصم القديمة مثل مدينة الحضر جنوب غرب الموصل ومثل مدينة همذان مثلاً. المهم هنا أن خطة المدينة المدورة ،بغداد تعتبر ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي. هذا إلى جانب المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة.

الخاتمة

في ختام هذا البحث الذي تحدّث عن التاريخ الإسلامي منذ بدايته، أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم عرض تاريخي متسلسل لأهم الأحداث التاريخية التي مرت في التاريخ الإسلامي، مع ذكر الأثر المهم الذي أحدثته وخاصة في البدايات، وأهم الشخصيات الإسلامية التاريخية التي كان لها دور بارز في صياغة التاريخ

الإسلامي..